مجلة متون (Moutoune) / ج د. مولاي الطاهر سعيدة / المجلد 14 ع 04 / ديسمبر 2021
ISNN : 1112-8518 EISSN : 6200-2600

النص والتأويلية الجذرية في فلسفة جاك دريدا

The text and radical hermeneutics in Jacques Derrida's philosophy

معرف مصطفى * (musphilos@gmail.com)	جامعة جيلالي ليابس، سيدي بلعباس/ الجزائر

الإرسال: 2021/10/03 القبول: 2021/10/22 النشر: 2021/12/01

ملخص:

من خلال ممثلها جاك دريدا (Jacques Derrida(2004-1930 ، تولي الفلسفة التفكيكية أهمية بالغة لمسالة التأويل وقراءة النصوص، نظرا لصلتها الوثيقة بالقضايا الدلالية والسيميائية، وذلك من خلال إعادة التساؤل حول مفهوم النص والكتابة من مستويات دلالية لغوية وتأويلية، تبحث في شروط تأسيس نظرية العلامة، وكذا في الامتدادات المفهومية التي ترتبط بإنتاج المعنى، وبإمكانية إيصاله للقارئ أو المتلقي. وهذا ما ذهبت إليه فلسفة التفكيك والاختلاف مع جاك دريدا، التي انتهت إلى نوع من التأويلية الجذرية، إذا علمنا أن الفضاء العام للتفكير الفلسفي الدلالي واللساني المعاصر أصبح يأخذ في اعتباراته، زيادة على الجوانب اللغوية والأسلوبية والنفسية التي ينتج فيها النص أو الخطاب، جوانب جوهرية أخرى، كالجوانب التداولية والأبستمولوجية والهيرمينوطيقية وغيرها.

كلمات مفتاحية: جاك دريدا، التفكيكية، النص، العلامة الكتابية، التأويلية الجذرية.

Abstract:

Through her representative Jacques Derrida , deconstructive philosophy attaches great importance to the issue of interpretation and reading texts, because of its deep connection to semantic and semiotic issues, and that is by re-questioning the concept of text and writing from semantic and interpretive levels, looking at the conditions for establishing the theory of sign, and so in the conceptual extensions that are related to the production of meaning and the possibility of its delivery to the reader or recipient. This is the result of the philosophy of deconstruction and difference with Jacques Derrida, which ended in a kind of radical hermeneutics, if we know that the public space of contemporary philosophical semantic and linguistic thinking has taken into account, in addition to the linguistic, stylistic and psychological aspects in which the text or discourse is produced, other essential aspects, such as the pragmatic, epistemological, hermeneutic, and other aspects.

Keywords : Jacques Derrida, deconstruction, text, writing sign, radical hermeneutics.

* معرف مصطفى (musphilos@gmail.com)

ISNN : 1112-8518 EISSN : 6200-2600

1.مقدمة:

يمتلك دريدا ذوقا خاصا لواجب التأويل interpretation، القراءة على العموم، وفن التأويل herméneutique، ليس فقط بقراءة النّصوص المكتوبة في الكتب فحسب، ولكن أمام كل شيء في الحياة، أو ما يسميه دريدا الكتابة بالمفهوم الواسع، أو الوجود المكتوب، الذي هو تأويل غراماتولوجي grammatologique للأنطولوجيا. إنه شغف دريدا إلى فك ألغاز ما وراء الشيفرات السهلة، من أجل رد الإعتبار للخيال وللوهم وللأثر، ولكل ما كان العقل الفلسفي من قبل يقصيه وينبذه، أي الإشادة بما هو مختلف، ومتعدد، ومهمش، ومقصي، وشاذ، وفوضوي. إنه ولع بالحقيقة والمعنى، ولكنه ولع فكر حذر ومتأني، يعي بأن الدلالة تنتج دائما من خلال هيرمينوطيقا جذرية ولا نهائية التأويل، وهو معنى الحقيقة ذاته الذي طالما تساءل عنه دريدا عند مرجعيات فلسفية كبرى مثل افلاطون، نيتشه، هوسيرل، هيدغر وغيرهم، محاولا تحرير قراءة النص والعلامة من كل انغلاق ميتافيزيقي، وإخراج المفهوم المبتذل للحقيقة من الحقيقة المتطابقة مع مقولات اللوغوس إلى الحقيقة كإمكانية للاختلاف.

فكيف يفعل دريدا أدوات التفكيك وفلسفة الاختلاف في قراءته للنصوص؟ وما هي المكانة الدلالية والسيميائية التي يمنحها للعلامة الخطية في أفق علم الكتابة؟ وماذا تمثل لديه التأويلية الجذرية في سياق مشروعه التفكيكي؟

2.التفكيك ومساءلة حقيقة النص:

تبدو المساءلات التفكيكية التي سلطها دريدا حول معنى الصوت، الكتابة، اللغة، الوجود...بمثابة الإستراتيجية التي مكنته من خلخلة و كشف بنية التفكير الغربي المنسجم مع تمركزه الصوتي phonocentrisme ، و اللوغوسي logocentrisme ، و الذي لم يستطع برأيه، أن يتصور المعنى و بالتالي نظرية العلامة خارج فلسفة الحضور.

ولذلك، فمن شان التفكيك، أن يدفع بالنص حسب دريدا إلى عرض طاقته التي تنبئ بمفارقاته وتناقضاته، محيلة بذلك إلى العوالم المخبوءة والعلاقات المغيبة في النص التي لم يعلن عنها بعد، " فحركات التفكيك لا تتوسل بنى الخارج، إنها ليست ممكنة ولا ناجعة ولا تحكم تسديد ضرباتها إلا بسكناها هذه البنيات"(دريدا، ج، 1988، 127). فمن مهام استراتيجية التفكيك النفاذ إلى عمق النص لاكتشاف علاقات الغياب، والمسكوت عنه والآثار المغيبة التي لا تحضر بوضوح في النص، سيما وأن القراءة المستعجلة كثيرا ما توهي بإمساكها بمدارات النص، بينما تقوم عوالم النص العميقة، بالعمل على إخفاء الدوال والآثار التي لا

ISNN : 1112-8518 EISSN : 6200-2600

يتسنى لغير قراءة فاحصة، تعتمد على التفكيك، من اختراق وكشف تلك العوالم، بتحرير الدوال والعلامة الخطية من القراءات التبسيطية أو الجاهزة المتسرعة، خاصة مع الإمتياز الذي تمنحه التقاليد اللغوية لنموذج الكتابة الابجدية المتمركزة حول الصوت و العلامة اللسانية، إذ "بقيت لزمن طويل تعامل باعتبارها الكتابة الأكثر مرونة والأكثر قابلية للفهم"(دريدا، ج، 1988، 108).

لقد حاول دريدا من خلال التفكيك، مساءلة مختلف أنواع النصوص، باحثا فيما إذا كان النص فعلا يمتلك معنى sens سيما وأن اللسانيين يعترفون أن أي تتابع للكلمات ،أو الجمل ، لا يكون بالضرورة نصا، وهو لهذا الغرض قام بتفكيك أعمال كثيرة، سواء كانت أدبية littéraires كتلك المتعلقة بكتابات أنتوني آرتو A.Artaud ، جان جينات J.Genet ، موريس بلانشوM. Blanchot ، فرانسيس بونج F. Ponge ، جايمس جويس J.Joyce بول سيلان P. Celan ، أو الأعمال الفلسفية philosophiques مثل أعمال نيتشه Nietzshe ، هيجل Hegel ، أفلاطون Platon ، روسو Rousseau وغيرهم.

إن عمل التفكيك، في تأويل ومقاربة النصوص عند دريدا، لم يضع في أهدافه اكتشاف أو اقتفاء أثر حقيقة معينة بالمعنى الذي كانت ترمي إليه البنيوية مثلا، من أن النص يمتلك معنى ما، فالنص وتبعا لدريدا لا يمتلك إلاّ آثارا، فهو متوالية لا نهائية من الاختلافات التي تنسجها العلامات الخطية، " فالاختلاف هو الطريقة أو الأسلوب الذي يتم فيه إطلاق طاقة النص على صنع المعنى"(حافظ، ص، 1986، 79).

يقوم التفكيك الدريدي على تحرير وتفجير طاقة الدال والعلامة الخطية، بتخصيب مستمر للمدلول من خلال الانفتاح على النص كفضاء للمكن، وليس كبنية مغلة تخضع لرغبة ما ينوي قوله كاتب النص، فالنص مع دريدا أصبح لا أصل له لأنه مجموعة نصوص متداخلة ومتقاطعة بخلاف نظرة الاتجاه البنيوي للنص كهيئة مغلقة وذو معنى تام، واقعة بذلك البنيوية في فخ الوصفية والتبسيطية معتمة ومهددة - حسب دريدا – بإسكات القوة، أي قوة الاختلاف تحت مطية الاحتفاظ بالشكل والبنية .

أما العلامة الخطية، ومن خلال اندماجها في مختلف السياقات النصية الكتابية، تؤهل عمل الأثر المزدوج كإمحاء وبقاء مؤجل باستمرار، إلى إقامة علاقات اختلاف داخل المكتوب كشبكة نصوص متداخلة، أي كتناص ينتج لعبة التيه واللعب بين العلامات الخطية، في نشاط معمم للتطعيم greffe والبعثرة والبذر dessimination في نسيج النّص، " النّص [الذي] هو نسيج "(Barthes, R, 1973, 100)بتعبير رولان بارت.

ISNN : 1112-8518 EISSN : 6200-2600

أصبح النص مع دريدا عبارة عن شبكة من الآثار التي تحيل إلى علاقات لا نهائية من الاختلافات بين العلامات الخطية حيث يبقى نشاط التفكيك مرتبطا أساسا بالقدرة على استجواب النصوص، والغور في لعبة المعاني، أي العمل على تكملة المعنى من خلال تفويض سلطة المعنى الثابت والعمل على فتح القراءة الحرة للدال بتفجير قدرة العلامة الخطية على أفق التأويل إذ " انتقل مؤوّلو النص من البحث عن الحقيقة وعن المعنى القار الوحيد إلى البحث عن المحتمل والممكن وعن المعاني المتعددة" (محمد، م، 1999، 28). وبالتالي تجاوز مركزية وسلطة الكلمة الملفوظة وتفكيك المفهوم، لأن كلا من النص الأدبي والفلسفي لا يمكنها الاستمرار إلا داخل اللغة المجازية ولغة الاستعارة، مثلما أشار إلى ذلك نيتشه في نقده للإرث الفلسفي كمجموعة استعارات.

يعمد دريدا إلى التفكير في هذه الظواهر: اللغة، المؤسسة الأدبية، والمؤسسة الفلسفية، تقاطع الاثنين بما أن يكتبه دريدا هو دائما على الحدود بين الاثنين، فهو يستعين في زعزعته لنظام النص على المنهج الترنسندنتالي كما عند كانط وهوسيرل، لكن ترنسندنتالية دريدا لا تعزو لأن تكون عقيدة أو منهجا صارما بقدر ما هي إستراتيجية لتجاوز المألوف، وهي بعكس – كانط و هوسيرل – لا ترمي إلى إثبات شيء ما من الأشياء مثل الهوية أو الماهية أو الحضور، وإنما توضع هي الأخرى موضع السؤال والتفكيك، فدريدا كثيرا ما أوضح أن كتاباته ليست مخزنا لكتابات جاهزة، وإنما هي مقاومات لكل محاولات التحليل أو التبسيط الجاهز.

كل هذا، حذا بدريدا إلى ملاحظة أن الأدب والنقد الأدبي على وجه الخصوص، يخضعان في الغالب لهيمنة نظم فلسفية كلاسيكية، أي لجاهزية تصور شكل تصنيف هذه الحقول التي تقصي اختلافية النصوص ومقاومتها، رغم أن العديد من الكتابات تفلت من قبضة هذه الهيمنة نظرا لاستحالة احتوائها من قبل الفلسفة أو التأويلية النقدية، وهو كما استقطب اهتمام دريدا مثل بعض الآثار المكتوبة، التي وقعها مالاري أو باتاي أو آرتو. فمثل هذه النصوص التي هي بنيات غير قابلة للتحديد، تتيح برأي دريدا فسحة للعب وللانتقال داخل الميتافيزيقا ونقضها أو تجاوزها.

لطالما دعا دريدا إلى تحرير فهمنا التقليدي للغة، بتفكيك الميتافيزيقا العالقة بها، ودفعها للعب دور حرّ بوصفها متوالية لانهائية من اختلافات المعنى، تسمح بقراءة حرة للخطابات دون خلفيات مسبقة، وهي الجرأة والإستراتيجية التي تعامل بها دريدا مع النصوص من خلال عمله على التموضع في البنى غير المتجانسة للنص، والخروج وحرية الانتقال والغور بين الداخل والخارج، لكشف المخبوء والمسكوت عنه، وهي نفسها النظرة المحورية التي تفجر طاقة الآثار

ISNN : 1112-8518 EISSN : 6200-2600

المكتوبة والاختلاف القائم داخل بنية النص، التي تمنحه القدرة على تكوين فضاء لا نهائي للعبة المعنى والتدليل وطاقة الكتابة (بركات، و، 1996، 84-85).

ينتقد دريدا بشدة، الانحباس أو البقاء داخل النص الأدبي، أي الانغلاق والاكتفاء بالقراءة الباطنية المحايثة للنص، لأنها في رأيه تقوم على الاحتماء داخل الحدود المقامة تاريخيا، والتي تفترض مجموعا كاملا من العقود التاريخية المتعلقة بتأطير النص وتحديد وحدته، ومتنه، وضماناته القانونية، وما إلى ذلك من تحديدات اجتماعية وغيرها. وعلى الرغم من أن دريدا لا يعترض على دفع القراءة المحايثة إلى أبعد ما يمكن كخطوة أولى، إلاّ أنه يشكك في جذريتها، لأنه وبعيدا عن ممارسة ساذجة لسيميولوجية النص أو لدراسة سيكولوجية أو سياسة، أو لسيرة المؤلف فإنه بحسبه، ثمة بين خارج النص وداخله توزيعا آخر للمجال أو الحيز. كما يعتقد في نفس السياق أنه سواء تعلق الأمر بالقراءة الباطنية أو بالقراءة التفسيرية للنص، عبر مسيرة الكاتب أو تاريخ الحقبة، يظل دائما هناك شيء ناقص.

3.النص كفضاء للتعدد والانزياح الدلالي:

في تناوله لنصوص مالارمي Mallarmé ، بونج Ponge ، جويس Joyce ، آرتو Artaut ، سلان Celan ، سيكسو Cixous وآخرين، وضح دريدا كيف أنه بالنسبة لكل واحد من هؤلاء، كان يلمس عبقرية في تطويع اللغة وتفجير طاقة لعبها، وكيف أنه يلمس البذر الضائع semence perdue للآثار المكتوبة في كتابات هؤلاء. ولعل هذا ماجعل الترجمة أو بصفة أخرى صعوبة الترجمة وأحيانا استحالتها intraductibilité من اهتمامات دريدا المركزة في مشروعه التفكيكي: الترجمة كاختلاف، لأن الجملة حسبه مدينة للأبد للغة أو اللسان وأن جسم الكلمة من هذه الناحية غير منفصل عن المعنى، وأن الترجمة لا يمكنها إلا أن تضيعه، لذلك تم التفكير في النص عند دريدا باعتباره نسق من الآثار التي لا تختزل إلى مادية matérialité نتائج المكتوب .

تقوم ممارسة تفكيك النصوص عند دريدا، على تأسيس قوة التشظي في خارطة النص من أجل تفجير وتعرية بنياته المخفية وبيان اللامفكر فيه، توسلا بجينيالوجيا نيتشه وفينومينولوجيا هوسيرل وهدمية هيدغر، فاستراتيجية التفكيك تقوم أساسا على مجموعة من المنطلقات التي تتصف بها النصوص وتسم بنيتها، في مقابل الطرحات البنيوية كما تجلت عند غريماس Greimas مثلا، الذي رأى أن النص يتكون من مجموعة إيزوتوبات isotopiesصورية متعددة، تمثل الخطاب الملفوظ الذي هو الدال الذي يدعو لإكتشاف مدلوله.

ISNN : 1112-8518 EISSN : 6200-2600

يبدو أن النصوص، حتى الفلسفية منها، ليست بسيطة أو ذات معنى واحد، إذ لا يجب حسب دريدا التعامل معها كأنساق مغلقة، لأنها تتضمن قوى متناقضة ومرجعيات متعددة مختلفة، لهذا فمن الطبيعي عدم الإنسياق وراء المسلمات التي تقول بوجود متكآت أصلية ميتافيزيقية للنص، لأن فكرة الأصل تحديدا، ذات منحى مثالي ميتافيزيقي. وهكذا فالنص يحمل بين طياته تعارضات بين دلالته الظاهرة والمستترة الباطنة والمنزاحة، وهذا ما يساعد على استنطاقها من أجل الوصول إلى دلالات جديدة تتجاوز سياقها الأصلي، وهو شأن النص المترجم أيضا الذي احتل مكانة خاصة في أعمال دريدا.

هذه الخصوصية التي يمتلكها النص، عن الاختلافات والتناقضات، ترتبط أساسا ببنيته كوحدة مركبة من نصوص أخرى، وهو ما يوحي بأن عمل التفكيك يقوم بكشف الاعتقاد القديم القائل بوجود وثوقية دلالية، ووجود معنى ناجز وتام في النص، وأن " العمل الأدبي ينطوي في بنياته الأساسية على متلق قد افترضه المؤلف بصورة لا شعورية وهو متضمن في النص في شكله وتوجهاته وأسلوبه"(عودة، ك، 1997، 148).

تتعلق فاعلية التفكيك وحركيته الممارسة على النص، بما يسميه دريدا بالنقد المزدوج double critique أو الكتابة باليدين، من خلال حركتين متكاملتين: قلب حمولة النص من خلال تفكيك شبكة التعارضات والتراتبيات القائمة بين المفاهيم، وتبيان زيفها والتناقضات القائمة فيها، ثم زحزحة لما تم قلبه حتى لا تحل محله الميتافيزيقا من جديد، ثم زرع greffe مفردات جيدة لتطعمها به، لخلق إثارة جديدة للاختلافات، وللعبة التدليل التي لا تنتهي عند حد في النص، من خلال طاقة العلامة الخطية وقدرتها على تأهيل لعبة الاختلافات و الإنزياحات داخل نسيج النص.

النص، يقوم بتوليد مستمر ومتدفق للدلالة، حينما ينتج الدال العلامة الخطية كلعبة متواصلة لا نهائية تقوم على الاختلاف، من دون إتاحة مدلول ما أن يفرض حضوره أي أن يتعالى، وهكذا فلا مجال لإقامة حدود تحصر المعنى، وهنا يلاحظ دريدا أن كل دال signifiant ما هو إلا استعارة métaphore لتعويم المدلولsignifié، الذي يتحول بدوره إلى دال، يقوم بدوره هو الآخر بإنتاج جديد من الدلالات، وهكذا تستمر لعبة المعنى والإحالات، إذ ليس من مرجع تقوم عليه العلامة برأي دريدا خارج اللغة، أو بتعبير بارت" العلامة كسر لا ينفتح أبدا إلاّ على وجه علامة أخرى"(Barthes, R, 1970, 72).

هكذا، فالأمر لا يخرج عن كونه مجرد حضور للعلامات في اختلافيتها وصيرورة إنتاجها للمعنى لأننا حسب دريدا لا نفكر إلا بالعلامات التي تفتح مجالا للتعدد والاختلاف في المعاني،

ISNN : 1112-8518 EISSN : 6200-2600

وبالتالي تصبح اللغة مدارا لآفاق ذات دلالات كثيرة، وينفتح القارئ على رغبة اللغة ويبدأ البحث عما هو مغيب فيها في أفق سيميائية عامة تفتح المجال لعلم تيولوجيا، أو أنماط العلامات الذي يبحث في تنويعات التواصل الممكنة.

إن لعبة الاختلاف تنتج الكتابة وتوجهها، وكل عنصر يتكون انطلاقا من الأثر trace في ذاته للعناصر الأخرى في السلسلة أو النسق، وهذا التحول الذي يتم داخل النسيج هو ذاته النص الذي لا ينتج إلا داخل تغيرات نص آخر، فالنص هو بالأساس إنتاج المعنى: النص الذي ينتج ويوقع نفسه. والنص المترجم تبعا لهذا هو لعبة يمارسها المترجم المبدع بمتعة وامتاع واختلاف، ومؤكدا في ذات الوقت، على ان الترجمة هي حقل مفتوح ايضا على لعبة الممكنات وتفتيق مساحة الألاعيب و الوهم، إذ أن "الوهم أشد رسوخا من الحقيقة، بل إنه متجذر فيها بالدرجة التي يضحى متطابقا معها ومطابقا لها تماما"(Derrida, J, 1980, 454) .

يستبعد دريدا في استراتيجية تفكيكه للنصوص، من أن يكون هناك نص متجانسhomogène، إذ أن هناك في كل نص حتى في النصوص الميتافيزيقية الأكثر تقليدية، قوى عمل هي في الوقت نفسه قوى عمل تفكيك للنص، وهذا الموقف الدريدي ترتب عنه بعض ردود الأفعال والنقاشات الحادة، مثل ذلك الذي جرى بين دريدا وهبرماس Habermas بخصوص العلاقة بين النص الفلسفي والنص الأدبي، في الوقت الذي يلوذ فيه دريدا في الغالب بالجماليات esthétiques لكسر إطلاقية النص الفلسفي ومقاربة العمل الفني من منظور سيميائي، إذ ليس من تعارض- في رأيه- بين المتخيل والحقيقة أو بين الاستعارة métaphore والمفهوم. وبحسب هبرماس سعى دريدا إلى تحويل البرهان والحجاج المنطقي إلى بلاغة وبيان، وتحويل المفاهيم الفلسفية إلى مجرد استعارات أو إقحام الأدب بدوره في التأمل الفلسفي، غير أن دريدا يتبرأ من مثل هذه التهم، مؤكدا أنه لم يسع إلى المماثلة بين النص الفلسفي والأدبي، وأن كلا النصين متمايزين، برغم إقراره بتعقد وحساسية الحدود الفاصلة بينهما، وبالتداخلات العميقة بينهما.

وهكذا، فدريدا يحاول تفكيك الادعاءات التأملية لفكر خالص ومطلق، وتجاوز التقابلات القائمة بين الشعري poétique والمنطقي، ولتراتبية النص الفلسفي والأدبي، ونقده للمؤسسة الأكاديمية في احتكارها لأحقية تحديد طبيعة النص وقيمته، لهذا فهو يدعو إلى تحرير النص من هذه النمطية، بدعوته لنص متشظي ومختلف، يفلت من النظرة البنيوية والدغمائية للنص.

لقد أوضح دريدا أن ما كان يهمه وهو يتناول تفكيك نصوص، فرويد، هوسيرل، هيدغر، أفلاطون أو ديكارت ليس الوقوف عند حدود النقد الخارجي، ولكن التموقع في البنية غير

ISNN : 1112-8518 EISSN : 6200-2600

المتجانسة للنص بهدف العثور على توترات أو تناقضات داخلية، يقوم النص من خلالها بقراءة نفسه، وتفكيك نفسه بنفسه. فهناك بحسب دريدا امكانية أن تجد في النص المدروس نفسه ما يساعد على استنطاقه وجعله يتفكك بنفسه، لأن النص يتكون ويضع نفسه من خلال تشابك مستمر، فالنص يملك قوى متنافرة تأتي لتفويضه وتجزئته، وهو ما لا حظه دريدا مع النص الفرويدي مثلا، باعتباره يضم بين طياته بقايا طبقات ميتافيزيقية ودوغمائية لم يتم بعد تفكيكها ويمكن إخضاعها لذلك، من مواقع أخرى وحركات أخرى، انطلاقا من عمل فرويد نفسه، أي بمعنى إخضاع النص الفرويدي لتفكيك ذاتي، و إفساح طاقة التفكيك على عمل إحالة مستمرة للاختلاف القائم على استنطاق عمق النصوص.

4.العلامة الكتابية، النص، وفاعلية الأثر:

وبهذا، سعى دريدا من خلال مشروعه التفكيكي إلى قلب المسلمة التي تقول بأن النص يمتلك معنى ثابت immuable ووحيدunique، ومن خلال المتكئات النظرية للسانيات والتحليل النفسي، يطور مقاربته في تفكيك النصوص، ويعتبر منذ البدء، أنه لا يمكن تقبل التناول التقليدي للنص الذي ترتب عنه الوقوع في الأحكام المسبقة، والأفكار المغالطة عن طبيعة النص ذاته. النص الذي هو عند دريدا، وقبل كل شيء، جسم كتابي ممضيsigné، يقول دريدا:" إننا لا نتعجب إلا لكون أنه لم يتم بعد التفكير في غرابة الحدث المسمى توقيعا" (Derrida,J & Cixous,H, 1998, 75).

إن القارئ التقليدي في نظر دريدا، يعتقد أن اللغة قادرة على التعبير على الأفكار من دون تشويهها، تغييرها أو تكييفها على الأقل، واعتبرت الكتابة ثانوية في مقابل الكلام الذي هو مصدر المعنى الذي ينويه النص الذي يكتبه، في حين يبين دريدا من خلال بحثه في صيدلية أفلاطون في كتابه البعثرة أو البذرdissémination، كيف أن النص يمتلك هذه القدرة على التخفي وأن طبقات نسيجة و اثاره تظل مستعصية على الانكشاف، مؤكدا قدرته على اللعب Jeux ، إذ لا يكون نص نصا، إن لم يخف على النظرة الأولى، وعلى المقام الأول قانون تأليفه وقاعدة لعبه.

لا يخفي دريدا، من أن اهتمامه الأساسي قبل الاهتمام الفلسفي منصب على الأدب، وعلى الكتابة الأدبية، ويتبع توازيا مع هذا الاهتمام، البحث في معنى الأدب ومعنى أن تكتب، ويخلص إلى أن الأدب والكتابة الأدبية، تتيح بما هي مجال رحب للممكن possible، من مضاعفة لا نهائية لتجربة تفعيل اللعب" ففي الأدب، في السر الفريد للأدب، هناك فرصة لقول كل شيء من دون المساس بالسر secret" (Derrida, J, 1993, 67) . فالأدب والكتابة الأدبية، وبعيدا عن تقليصها في جملة من الخصائص الجمالية أو بعض منابع المتعة الشكلية، فإن جوهره الأساسي

ISNN : 1112-8518 EISSN : 6200-2600

يبقى في السر، في سر الأثر، وأثر السر، وفي إمكانية تحويل كل نص إلى موضوع أدبي objet littéraire. الكتابة الأدبية بما هي تسريح وقبول قول كل شيء، وكذا بطبيعتها الوظيفية وقدرتها على الاحتفاظ بالسر، أو ما عبر عنه "بارت" أيضا بالوهم الرائع magnifique illusion، وهو ما يسمح به الشعر على وجه الخصوص، لأن الشعر هو القوة الأساسية للسكن الإنساني بتعبير هيدغر.

هذه الرؤية، التي ينتهي إليها دريدا فيما يتعلق بالنص، تفتح المجال واسعا أمام مضاعفة قراءة وتأويل النص، وهو الذي يعترف أنه يحس بنفسه قريبا من هيدغر من زاوية كثافته الوجودية، من تلك التي لدى هوسيرل، وأن هوسيرل يمثل بالنسبة له ذلك الذي لقنه تقنية technique ومنهج méthode وانضباطdiscipline، وأن الفينومينولوجيا تمرين لائق لكل قراءة ولكل تفكير ولكل كتابة.

بهذا، يتقدم سؤال القراءة والنص المكتوب، واشكالية التلقي réception كإشكالية تنفتح على فينومينولوجية التلقي الأدبي، كإحدى أشكال طاقة الكتابة وحيوية العلامة الخطية في نسيج اثار النص، التي تفجر قوة إنتاج لا نهائي للاختلافات: الأختلاف différance الذي يمكن من القول أنه يستحيل الوصول إلى تحليل نهائي للنص بسبب تبعثر معناه. و من ثم، فان دور الأثر يتجلى في أن ما هو كائن في العلامة أي الجزء المتحقق فيها، يحرك الذهن باتجاه ما هو غير كائن فيها، ولهذا السبب، يعتبر دريدا أن ما هو موجود في العلامة، يحمل أثر ما هو غير موجود فيها، وبالتالي فالعلامة الخطية بحكم طابعها المزدوج من الحضور والغياب، تكون الأساس الذي ينبني عليه المفهوم الجديد لتصور مفهوم الكتابة و النص من خلال الغراماتولوجيا(Derrida, J, 1967, 107).

بعد النقلة التي أحدثتها الهيرمنوطيقا herméneutique الكلاسيكية لدى شليرماخر Schleimacher ودلتايDithy ، من خلال تناول النصوص الدينية اللاهوتية، ثم انتهاء لتصبح الهيرمينوطيقا في الأخير علما عاما للفهم، ومنهجا لتفسير ظواهر العلوم الإنسانية، بمحاولة النفاذ إلى باطن الوجود والروح الإنسانية، وهذا ما حذا بدلتاي إلى الاعتقاد بأن فن التأويل، يتمركز حول تفسير بقايا الوجود الإنساني المحفوظة في الكتابة، و كذا قدرتها على الاخفاء، والغياب والتعدد والاختلاف، وهذا الوضع خلق الظروف لجدالات تأصيلية للتداخل القائم بين الحقيقة الصوتية والعلامة الخطية (بيرو، ج، 2001، 05).

يستمر الوعي القائم حول ضرورة تجاوز الشكل المغلق الذي يمكن أن يأخذه النص، وما يترتب عليه من أوضاع تِؤدي في الغالب إلى طرق مسدودة، كتلك التي لاقتها البنيوية مثلا،

ISNN : 1112-8518 EISSN : 6200-2600

فاتحة المجال أمام أزمة تتطلب إعادة السؤال في منطلقات الهيرمينوطيقا، ودورها في بلورة نظرية الأدب والنقد المعاصرين، ليس في مجال التنظير الأدبي فحسب بل في سائر العلوم الإنسانية التي لم تتوقف في إعادة النظر في مناهجها وفي مدى فاعليتها أيضا، ابتداء بإسهامات هيدغر في إرساء دعائم هيرمينوطيقا فينومينولوجية تسعى خاصة لكشف مسألة الوجود، خاصة وجود الإنسان في العالم Dasein .

5.التأويل الجذري ومتاهة الاختلافات:

واضح، أن المسار الذي انتهجته الهيرمينوطيقا في صورتها المعاصرة، منذ دلتاي وشليرماخر مرورا بجادامير Gadamer ويورغن هبرماس J.Habermas ، وبول ريكور P. Ricoeur ، ودريدا وانتهاءا بمحدثين مثل ريتشارد روتي R.Rorty ، هؤلاء جميعا استوعبوا مرونة واتساع الفكر الفلسفي ليخترق ما يسميه الألمان بعلوم الروح Geistswissenschften والتي تشمل العلوم الإنسانية والاجتماعية على السواء، ما يفسر أيضا عدم انتهاء المساءلة النقدية للعلوم الإنسانية عند حد منذ دلتاي وشليرماخر وانتهاءا بريكور غادامير، دريدا، فاتيمو ورورتي وغيرهم، ذلك أن مسألة تجلي الحقيقة في العلوم الإنسانية، تظل في عمقها ذات صلة وثيقة ومحايثة للتجربة التاريخية واللغوية والفنية.

وعلى غرار دريدا، يبدو أن المحاولات الكثيرة في هذا الشأن التي تتبنى التأويل، تخلص في معظمها إلى الدعوة إلى التواضع المعرفي الذي يتوخى تحرير وتصحيح التصورات والأحكام المسبقة التي انبنى عليها الفهم القديم للنص، وذلك بانفتاح القارئ على ذاته وعلى الوجود والاستفادة من التجربة الفينومينولوجية بالعودة للأشياء ذاتها، مثلما يعتقد كل مؤول herméneute أن معنى ما يجب بلوغه وأن هذا المعنى متخفي، غير طيع بدون تقنية مكيفة.

فالنص، ترحال للنصوص وتداخل نصي، ففي فضاء نص معين تتقاطع وتتنافى ملفوظات عديدة مقتطعة من نصوص أخرى، إذ لم يعد مع فلسفة التأويل نسقا مغلقا من الرموز والإشارات والدلالات، وإنما هو خطاب discours مفتوح لا تتوقف عنده حركة القراءة والنقد والتواصل الفكري، سيما بعد شهادة نهاية اليقين في الفكر الغربي وتقويض المعنى الكوني والشمولي، وفتح أفق تشظي الدلالات، باعتبار النص فسيفساء مستقاة مكوناتها من نصوص أخرى، فاسحة المجال للانتقال من سلطة المؤلف إلى سلطة النص والقارئ، لأن المؤلف أسسه النص، إنه قائم بالذات في مدى المعنى المحفوظ والمدون بالكتابة: فالنص هو المكان بالذات حيث المؤلف يتأتى.

ISNN : 1112-8518 EISSN : 6200-2600

في تعامل دريدا مع مختلف النصوص، نجد فسحة نوعية وانفتاح لاختراق اللامقال في النص، بتحرير طاقة الدال المكتوب وتفجير إستراتيجية التفكيك على الذهاب بعيدا في كشف المخبوء في النص، وتبيان التناقضات والتوترات والفراغات التي تتغلغل في ثنايا النسيج الكتابي لبنية النص.

ومثلما ذهبت تأويلية ريكور خاصة في كتابه" صراع التأويلات " انطلاقا من الفينولوجيا وانتهاءا بالهيرمينوطيقا إلى تجاوز وإزاحة للمتعاليات المجردة كما جاءت عند هوسيرل Husserl مثل قوله بمبدأ المبادئ principe des principes فإن تأويلية دريدا تتم عن قراءته النوعية التي تكرس إرادة الإنفتاح على الآخر المختلف، والرغبة في معرفة لا تركن إلى التبسيطات أو إلى سن حقائق متسرعة وجزافية و اطلاقية. فليست الحقيقة سهلة دائما ومنكشفة. فالنص " يتبدى في صراع تأويلاته وتنافر دلالاته"(شوقي، ز.م، 2002، 66)، ما يدعو القارئ إلى تبني صرامة القراءة المدققة والمتفحصة الحذرة التي تتطلب بدورها وسائل وآليات لغوية ونحوية وفنية، ومفاتيح رمزية وفلسفية وأدبية وغيرها، بعيدا عن الاعتقاد السائد عن تعالي النص باتجاه مدلول أو عامل مرجعي خارج تناصه الخاص.

كان الاهتمام المعقود للنص الميتافيزيقي الشمولي، يتوخى منطق الحضور والكليانية الذي ينتصر للمعنى على حساب الكتابة، ويهدر الدال ليعزز المدلول، ويكسر الحرف بعدما ينطلق منه ويقوم على أرضيته لأن مبتغاه هو وراء الحرف، إلى أن نهض ضد هذا الانغلاق clôture الميتافيزيقي والأكاديمي مجموعة من مفكري الاختلاف مثل دريدا، دولوز وليوتار واستعمالهم للمجاز والاستعارة بدل التصور أو المفهوم كما في دلالته الفلسفية الهيغلية. فالاستعارة صادرة من الرمز، داخل نسق العلامات الذي هو اللغة. وتبعا لذلك انصبت إستراتيجية دريدا في قراءة وتفكيك النصوص الفلسفية، الأدبية، الفنية، الواقع الإجتماعي، الحدث التاريخي، المؤسسات...إلخ، قراءة اختراقية وتأويلية جذرية، تكسر النواة التي تؤسس منطق النص وتحكم نسقه، متجاوزة الخطاب الماهوي والشمولي الذي يتضمنه النص ويدعو إليه، أي تقويض منطق الحضور ومركزية الذات المبنية عليه، التي هي مراكز لوغوسية بالأساس.

وسواء تعلق الأمر بدريدا، أو برواد التفكيك في الحقل الثقافي الأمريكي من أمثال: بول دومان S.fisch, H.Bloom, G.Hartman, P.Deman وغيرهم، فإن النص متوتر بطبيعته ولا يقيني indécidable وينطوي على الإيهام simulacre . ففي رأي دريدا، لا يوجد خارج النص hors texte ، إذ كل حركة أو علامة أو إشارة أو واقع أو حقيقة، هي بالنسبة لدريدا نص، ولا وجود لقيمة متعالية تتحكم من الخارج في داخله. فالنص، يصبح مع دريدا، سلسلة لا نهائية من

ISNN : 1112-8518 EISSN : 6200-2600

الإيهامات النصية التي تخلق الإنزياحات داخل أفق التشكيلات الكتابية المختلفة، التي تعمل على حياكة أنسجة textures النص. إذ وبعيدا عن أن ينغلق النص على نفسه، أو على بنيته الخاصة، أو إنتاجيته الخاصة، فإنه ينفتح على نصوص أخرى: كل نص امتصاص وتحويل لنصوص أخرى، أي دخول النص في علاقة تناص intertextualité مع نصوص أخرى.

ذهب دريدا إلى القول، بأنه لطالما أن مقولته لا شيء خارج النص تم فهمها خطأ من قبل العديد من القراء، حينما اتهموه بإلغاء المرجع référent الخارجي، في حين أن دريدا يفهم النص عموما بأنه لغة langage، وأن النص لا يمكنه أن يختزل إلى فعل الكلام بالمفهوم الصارم، أي لا يمكنه أن يركن مستسلما لمنطق الصواته phonè على حساب الجرافيك والكتابة، إذ إن تاريخ الدلالة هو تاريخ إعلاء من شأن المدلول signifié، واعتبار الدال الكتابي مجرد سبيل عارض يتم العبور عليه للوصول إلى المعنى(Rey, A, 1976, 338-339).

وحسب لاروبل Laruelle ، فإن النص الدريدي لا يتكلم عن الواقع إلا ليسحقه أو يمحقه ولا يعبر بدال إلا بتوزيعه وتشتيته ولا يعبر عن مدلول إلاّ بتأجيله وإرجائه، وهكذا في الكتابة كتناصية أو كأزمة منعدمة القرار مثلما يؤكد لاروبل، من أنها تتأرجح بين منطق المتعدد وحتمية المتردد، ما يوحي بأن القراءة المحايثة immanente والكتابة التي تصاحبها، يجب أن يكونا في نفس الوقت متجانسين homogènes مع النص المقروء ومتغايرين hétérogènes مفتوحين على شيء آخر، وهنا يلتقي دريدا مع الإيطالي جيوفاني فاتيموG.Vatémo في كتابه " فيما وراء التأويل" حينما دعا إلى كتابة استراتيجية تجمع في بعدها بين الفلسفة والادب، وتسير وفق رؤية جمالية ومجازية في وصف الوقائع والتعامل مع الخطابات، ذلك أن مواصفات الحقيقة في النص ترجع إلى حركة استراتيجية، وليس إلى مرجع تاريخي.

ويذهب أمبيرتو إيكوE.Eco إلى اعتبار أن الخاصية الرئيسية للتأويل، أو لما سماه بالمتاهة الهرمسية "هي قدرتها على الانتقال من مدلول إلى آخر ومن تشابه إلى آخر ومن رابط إلى آخر، دون ضابط أو رقيب" (إيكو، أ، 2000، 118)، وبهذا فالسيميوزيس sémiosis الهرمسية قد تحيل إلى السيميوزيس اللامتناهية كما جاء بها بورس Pierce، والتي تتيح الحديث عن متاهة تأويلية لا متناهية، حينما يتكلم بورس عما سماه بانحدار لا متناه للعلامة، التي هي عنده، شيء تفيد معرفته معرفة شيء آخر، ما يدل على أن الانتقال من مؤول إلى آخر، يكسب العلامة تحديدات أكثر اتساعا، سواء على مستوى التقرير أو على مستوى الإيحاء، مثلما أقره يامسليف Hjelmslev(1965-1899) وعممه بارث Barthes ، وفي المقابل يرى شارل موريس Ch.Moris(1979-1901) ، أنه يمكن النظر للسيميوزيس من عدة مستويات ممثلة بثلاث

ISNN : 1112-8518 EISSN : 6200-2600

علائق، علاقة العلامات بالموضوعات، وعلاقة العلامات بالمؤولين، والعلاقة الشكلية للعلامات فيما بينها.

وبالمثل، - يقول إيكو- إن المتاهة الهرمسية حاضرة في نوع آخر من المتاهة التي تدعو إليها تفكيكية دريدا، من أن النص الدريدي، ما هو إلا آلة لإنتاج سلسلة من الإحالات اللامتناهية، متحديا بذلك النصوص التي تبدو وكأنها مرتبطة بمدلول متعالي محدد ونهائي،" فالنص لم يعد مجرد علامات تقوم بدور الممثل لا غير، إنه يحجب ما يمثله ويتلاعب به أو يلعب عليه، فالخطاب حجاب" (حرب، ع، 1995، 11)، وهكذا تعمل الكتابة على مضاعفة هذا الحجب وهذا اللعب المتأرجح بين الظهور والتخفي، الحضور والغياب: الكتابة كحجب لا متناهي.

كما يعتقد إيكو، أن ما يود دريدا البرهنة عليه، هو تلك السلطة التي تمتلكها اللغة المتجلية في قدرتها على قول أكثر مما تدل عليه الألفاظ المباشرة، حينما تختفي قصدية الذات التي تنتج النص، والتي لا يصبح من ضرورات القارئ والمؤول التقيد بمقتضيات هذه القصدية الغائبة. فتصبح اللغة والعلامة الكتابية عندها، مندرجة ضمن لعبة متنوعة للدوال والإحالات الرمزية، لأن الرمز symbole هو تمظهر مليء بالانفعال من دون توقف، لا يتوقف الرمز إلاّ ليصبح علامة، إذ كل دال عند دريدا يرتبط بدال آخر، داخل سلسلة لا نهائية من لعبة الاختلافات. فدريدا يبتغي للعلامة أن " تسلم أمرها لمتاهتها الأصلية" (Derrida, J, 1972, 377).

من جهته، يعتقد ريتشاد رورتي، أن وراء النصوص يختفي شيء آخر لا يمكن أن يكون مجرد نص آخر، بل هو ما يصنع النصوص في علاقة تناسب فيما بينها، وهو يتبنى الفرضية التي تجيز القول بأن المتاهة اللانهائية التي تتحدث عنها تفكيكية دريدا هي من أشكال السيميوزيس اللامتناهية عند بورس، لذلك نجد أن روتي لا يتردد في تصنيف تفكيكية ضمن حدود البرغماتيةPragmatisme إذ وحسب بيرس وفتجنشتين(1889-1951)L.Wittgenstein ليس المهم في اللغة البحث عن الدلالة ولكن عن الإستعمال.

6. خاتمة:

على ضوء ما سبق ذكره، فإنه وبعيدا عن أن تكون تأويلية دريدا نزعة شكية أو عبثية، فإن تأويليته الجذرية تتجه إلى سبر أغوار كل الممكنات والحالات غير القابلة للتأويل، وبإمكانيات الإحالة على أية علامة كتابية، من حيث قدرتها على إحداث قطيعة rupture مع أي سياق كيفما كان نوعه، معلنة عن ميلاد سلسلة لا متناهية من السياقات الجديدة.

ورغم أن دريدا تم اتهامه من قبل الكثرين، مثل سيرل Searl الذي قال عنه، أنه يملك ميلا مرضيا لقول أشياء خاطئة بشكل بديهي. غير أن دريدا نفسه من الأوائل الذين يعترفون

ISNN : 1112-8518 EISSN : 6200-2600

بوجود معايير للتأكد من صحة تأويل نص ما، مثلما جاء في الجراماتولوجيا عندما ذكر دريدا قراءه، بأهمية أدوات النقد التقليدي، التي لولاها لسار الإنتاج النقدي في كل الإتجاهات، ولسمح لنفسه بقول أي شيء. إلاّ أنه يضيف أن هذه الأدوات، لا يجب أن تشكل حاجزا ضد أي انفتاح على قراءة جديدة، فهذه الأدوات قد تلعب دور الانغلاق والصمود أمام أي جديد.

كما أن نظريات القراءة التداولية والوظيفة، أصبحت تأخذ في اهتمامها المؤلف والنص ومقتضيات الأحوال، فالنظريات السيميائية، وإن قالت بتعدد المعاني، وبرفض الإحالة الخارجية، فإنها تزعم أن للنص معنى جامعا موضوعيا ووجيها بالإمكان بلوغه، وهو ما انتهى إليه سيميائيون بنيويون من أمثال غريماس وكورتيس مثلا، الأمر الذي بات يهدد بتحطيم الاختلاف والمغايرة لصالح وحدة قسرية وهمية.

يصرح دريدا أنه يحس بالتعب من مصطلح حقيقة، طالما نظر إليه كحجبvoile، أو إزالة لهذا الحجب بالمفهوم الهيدغري، وزيادة على ذلك يصرح بأنه غير مستعد لأن يترك مفهوم الحقيقة يسقط باسم نزعة شكيةscepticisme، وغير امبريقي empiriste لأنه يتمسك بمفهوم حقيقة لصيق بتجربة ما يحدث. إنها تجربة غير مترجمة intraduisible في النهاية أي تجربة فريدة، إنها تجربة فينومينولوجية تتجاوز كل اختزال أو أي شكل من أشكال التبسيط المرجعي، إنها حقيقة- يقول دريدا- فريدة غير ممكنة الترجمة، وغير واعية inconsciente والتي ربما لا تظهر كما هي.

يريد دريدا لتجربة الحقيقة أن تسقط في هذا" الكما هو"comme telle، لأنه وبمجرد تمظهر الحقيقة كما هي، تصبح من ضحايا اللغة العادية التي تلتقطها. وفي مقام آخر، يحدثنا دريدا عما يسميه بأخلاقيات éthiques أو سياسة القراءة، تلك التي تعترف بقراءة متواضعة لا تقصي القراءات الممكنة، قراءة لا تدعي لنفسها امتياز نيل الحقيقة المطلقة، بل فتح آفاق ممكنة جديدة على الاستنطاق والغور في اللامقال non-dit في أي نص مهما كان جنسه.

ففي أي كلمة، وفي أي تمظهر خارج الأدب هناك سر غير متناول inaccessible ، وهذا يرجع إلى المتعلقات التي يعلن عنها النص نفسه، من خلال التشكيلات المختلفة للكتابة، والبذر والبعثرة، وكذا التطعيم والتأجيل الذي تتمتع به العلامة الخطية، التي تفتح أفق تأويل جذري للنص في اختلافيته.

7.المصادر والمراجع:

المصادر:

ISNN : 1112-8518 EISSN : 6200-2600

1- جاك، دريدا .(1988).الكتابة والإختلاف، ترجمة كاظم جهاد، الدار البيضاء، دار تو بقال للنشر.

2- Jacques, Derrida.(1967). de la Grammatologie, paris, édit : minuit.

3- Jacques, Derrida .(1972). marges de la philosophie, paris, édit : minuit.

4- Jacques, Derrida .(1980). la carte postale de socrate à frend et au dela, paris, édit: flammarion.

5- Jacques, Derrida.(1993). Passions, paris, édit : Galilée.

6- Jacques, Derrida , D & Hélène, C.(1998).voiles, paris, édit: Galilée.

المراجع:

7- أمبرتو، إيكو.(2000). التأويل بين السيميائية والتفكيكية، ترجمة: سعيد بنكراد، بيروت، المركز الثقافي العربي.

8- Alain, Rey.(1976). théories du signe et du sens, lecture2, paris, édit: Klinckseick.

9- جون، بيرو.(2001). اللسانيات، ترجمة: الحواس مسعودي، م. بن عروس،الجزائر، دار الآفاق.

10- حافظ،صبري.(1986). (الشعر والتحدي وإشكالية المنهج) ، مجلة الفكر العربي المعاصر،بيروت، العدد 38، آذار، مركز الإنماء القومي.

11- Roland, Barthes.(1970). l'empire des signes, paris, édit flammation.

12- Roland, Barthes.(1973). plaisir du texte, paris, édit:seuil.

13- شوقي الزين، محمد.(2002). تأويلات وتفكيكات، الدار البيضاء، بيروت المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء.

14- علي، حرب.(1995). نقد النص: النص والحقيقة،(الطبعة2)، بيروت، المركز الثقافي العربي.

15- كاظم، عودة.(1997). الأصول المعرفية لنظرية التلقي، عمان، دار الشروق.

16- مفتاح، محمد.(1999). المفاهيم معالم. نحو تأويل واقعي، بيروت، المركز الثقافي العربي.

17- وائل، بركات.(1996). مفهومات في بنية النص، دمشق، دار المعهد للطباعة والنشر والتوزيع.